اهتمام "المجلة الإفريقية" بحملة الضابط أوريلي O'reilly على مدينة الجزائر 1775

أ.عبد الجليل رحموني -جامعة سيدي بلعباس

تمهيد:

تعتبر الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر من الأحداث الهامة، والوقائع الحاسمة في تاريخ الجزائر الحديث، وذلك للأحداث التي تميزت بها والنتائج التي أسفرت عنها، فكانت هذه الحملات إحدى مخططات إسبانيا المسيحية الصليبية للسيطرة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، فقد تنوعت كتابات المجلة الإفريقية حول هذه الحملة التي تعد من أهم حملات القرن 18م على مدينة الجزائر ، وسنحاول في هذه الورقة البحثية التركيز على الأسباب الحقيقية لهذه الحملة، والأحداث التي جرت فيها، والنتائج التي خرجت بها.

أولا: أسباب هذه الحملة

لقد تعددت وتنوعت أسباب هذه الحملة منها ما هو ديني محض، ومنها ما هو سياسي ومنها ما هو اقتصادي نوجزها في النقاط الآتية:

- ✓ لقد مثل العامل الديني السبب الأول والرئيسي لهذه الحملة، وهذا ما يعكس مدى التعصب المسيحي الكاثوليكي لإسبانيا تجاه العالم الإسلامي، و يتضح ذلك جليا في مباركة الكنيسة لهذه الحملة وتأييدها لها منذ البداية.[1]
- ✓ ضعف الباب العالي الذي كان يقوم بإرسال المساعدات العسكرية لصد الحملات المتكررة على السواحل الجزائرية مما أفسح المجال للتحرش الإسباني.
- ✓ سوء الأوضاع الداخلية لإيالة الجزائر ذلك أن في هذه الفترة كانت البلاد تشهد العديد من الاضطرابات نتيجة الثورات التي كانت تنشب بين بعض القبائل.
- ✓ تمرد بعض القبائل على الحكام العثمانيون ودخولهم في حلف مع الأسبان ضد الأتراك العثمانيون.
- ✓ وجود عملاء وجواسيس أقاموا بمدينة الجزائر بحيث أنهم استطاعوا كتابة تقارير وافية ونقل أخبار وأوضاع الإيالة إلى الأسبان، وبناء على هذه التقارير تم تجهيز حملة عسكرية لشن هجوم على مدينة الجزائر.[2]
- ✓ توتر العلاقات الجزائرية الاسبانية نتيجة الوجود الاسباني المستمر في وهران والمرسى الكبير، خاصة بعد فشل محاولات التقارب و التفاهم بين اسبانيا و الجزائر

لذا لجأ الملك الإسباني لاستخدام القوة العسكرية، ولأجل ذلك سخرت اسبانيا جيوشا كبيرة في كل من برشلونة و قرطبة وغيرها.[3]

ثانيا: أحداث هذه الحملة

أعد الملك الإسباني شارل الثالث[4] حملة بحرية انطلقت من خليج قرطاجنة الاسبانية في 23 جوان 1775 شكلت هذه الحملة أسطولا حربيا كبيرا بلغ تعداده حسب إحصائيات المجلة الإفريقية حوالي 400 سفينة، من بينها 60 سفينة حربية، أما الباقي فكان عبارة عن سفن شراعية ذات مجاديف، كما خصصت سفن أخرى لإطلاق القذائف، أما السفن الباقية فكانت محملة بالذخيرة الحربية والجنود، متجهة إلى واد الحراش حيث وصلت في 30 جوان من السنة نفسها،[5] وفي الفاتح من جويلية اكتملت قطع الأسطول كلها وتم إطلاق أربع أو خمس طلقات بالمدفعية دليل على اكتمال كل القطع الحربية واقرعوا الطبول وارنوا المزامير وزينو البواخر بالألوان، وقاموا بوضع خطة إستراتيجية لشن هجوم على المدينة،[6] كانت كل واحدة من هذه السفن محملة بـ 80 مدفعا يزن الواحد منها 24 إلى 36 رطلا،[7] وبدأت المدافع في إطلاق القذائف، فكانت تلك الصورة تعبر عن مدى قوة ووحشية هذا الهجوم الذي تعرضت له المدينة.[8] كما رد السكان المحليين بالمثل على تلك القذائف.

ولمواجهة هذه الحملة قام أحمد باشا بوضع خطة إستراتيجية وتوفير القوات اللازمة لصد هذه الحملة فأمر بإبقاء قوة عسكرية تحت إمارة خوج الخيل قرب باب الواد، وقوة أخرى تحت إمارة الخزنجي بواد خميس تحت إمارة الصالح باي قسنطينة، وتمركزت أمام جسر الحراش خلف القوة العسكرية الكائن عند مصب واد الخميس، أما باي الغرب فقد تموقع بقوات عسكرية للدفاع على المرسى الكبير.[9]

و تفيد المجلة الإفريقية بأن محمد باشا قام بتجنيد كل الشباب البالغين سبع سنوات فأكثر وكونَّ جنودا وعساكر، كما قام بتوزيعهم على شكل محلات كالآتي:

جزء أرسله إلى محلة الخزنجي الشريف سيدي حسن، كما أضاف محلة في عين الربع وجزء آخر انضم إلى قوات آغا العرب، وفئة أُرسِلَتْ إلى خوجة الخيل الذي كانت قواته ممركزة خارج باب الواد، أما باي الغرب إبراهيم باي بقي يترقب نواحي مستغانم،[10] وهكذا كانت القوات العسكرية الجزائرية مستعدة تمام الاستعداد لمواجهة هذه الحملة، وذلك بإقامة التحصينات القوية التي كان لها دورا كبيرا في تطويق القوات الإسبانية وإحباط كل مخططاتها التي كانت تهدف إلى محاولة حصار المدينة

والسيطرة عليها، ولعل هذا ما أجبر القوات الإسبانية على النزول في مصب واد الحراش.[11]

ولم تتوقف الطلقات النارية من طرف السكان المحليين، ولتخفيف الضغط وإرباك الأسبان قام باي قسنطينة بهجوم مباغت على الحصن الذي كان الإسبانيون متحصنين به حيث أن هذا الحصن قد أحيط بأسلاك شائكة وهذا ما حال دون اقتحامه، فارتفعت حرارة الجو بسبب القذائف المتبادلة بين الطرفين، وكانت النساء تَنحن و تَبْكيْنَ ويدعون الله أن يرد هؤلاء الأسبان على أعقابهم خاسئين، وفي هذه الأثناء هبت عاصفة قوية قضت على ما تبقى من الجنود الأسبان[12] ولعل هذا ما أدى بالقائد الإسباني الأميرال مازاريد « Mazarredo » بالقول: "بعد أن تجمعت الحملة في خليج الجزائر واجهتنا رياح وعاصفة قوية مما أعاق عملية إنزال الجنود".[13] متجاهلا شراسة وقوة الجنود الذين قاموا بإهلاك معظم السفن الإسبانية.[14]

بدأت عملية الانسحاب وأعطيت الأوامر للسفن الإسبانية بالابتعاد عن الساحل، ويبدو أن القائد العام أوريلي « O'reilly » تفاجأ لما حدث لجنوده فقرر قصف مدينة الجزائر بالقنابل في 13 جويلية و لكنه وجد معارضة من طرف أعضاء المجلس الحربي فأضطر للتراجع عن قراره.[15]

ثالثا: نتائج هذه الحملة

انتهت هذه المعركة بالفشل الذريع لإسبانيا و أسفرت هذه الحملة عن مجموعة من النتائج نوجزها في النقاط الآتية:

- ✓ لقد زرعت هذه الحملة الخوف و الرعب والهلع في أوساط الرعية.[16]
- ✓ ساهمت هذه الحملة في إبراز العديد من الشعراء الشعبيين، وبذلك ظهرت القصائد والمدائح الشعبية تعبيرا على النصر المبين، ولم تنطفئ هذه الحملة في ذهن هؤلاء الشعراء.[17]
- ✓ تم قتل أكثر من 10000 مسيحياً في هذه الحملة حسب إحصائيات المجلة الإفريقية، أما المصادر الإسبانية فتصرح بـ 4000 شخص فقط بين قتيل وجريح،[18] في حين قَدّرت بعض المصادر المحلية أن الأسبان قتل منهم حوالي 8000 شخص و جرح منهم حوالي 3000 شخص.[19]
- ✓ وتفيد المجلة الإفريقية بأن حوالي 200 شخص قد استشهد من الجنود الجزائريين.

✓ أما الخسائر المادية فقد تم إحصاء حوالي 500 جمل قد قتلت، وأطلق على هذه الحملة بعام الرمال لأن الحملة وقعت علي شاطئ الرمال.[20]

وفي نهاية هذا المقال لا يسعنا إلا أن نقول بأن هذه الحملة قد باءت بالفشل الذريع للأسبان وذلك راجع بالأساس للتحصين الجيد للإيالة والدور الجهادي للجزائريين ومهاراتهم الحربية والعسكرية، فقد حاول الأسبان التقليل من حجم خسائرهم الفادحة وإرجاع سبب هزيمتهم إلى أخطاء إستراتيجية وسوء الأحوال الجوية، لكن في حقيقة الأمر قد فوجأوا بالمهارات الحربية و التحصينات المنيعة التي أربكتهم، ورغم هذا الفشل الذريع الذي منيت به اسبانيا إلا أنها لم تتعظ و أعادت الكرة مرة ثانية تمثلت هذه المرة في حملة دون أنطونيو.

الهوامش:

(1) Berbrugger (A), « Expédition d'Oreilly Contre Alger en 1775 », R .Af, n°8, Alger, 1864, p173.

(2) Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly d'après Un Document Turc », R .Af, n°3, Alger, 1858, p 437.

(3) Berbrugger (A), « Expédition d'Oreilly….. », n°8, op.cit, p173.

(4) ولد بمدريد سنة 1716، وهو ابن فليب الخامس، كان دوق على بارما ما بين (1735-1731)، ثم ملك نابولي وصقلية ما بين (1759-1734)، ثم ملك اسبانيا مابين (1788-1759). ينظر: عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1206هـ/ 1505-1792م)، دار هومة، الجزائر، 2012، ص 84.

(5) Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly….. », n°3, op.cit, p437.

(6) Feraud (L), « Traduction d'un Récit Arabe de Expédition d'Oreilly en 1775 », R .Af, n°9, Alger, 1865, p181.

(7) Feraud (L), « Traduction d'un Récit….. », n°9, op.cit, p182.

(8) Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly….. », n°3, op.cit, p437.

(9) Feraud (L), « Traduction d'un Récit….. », n°9, op.cit, pp181-182.

(10) Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly….. », n°3, op.cit, pp438-439.

(11) Mazarbedo, « Expédition du Contre Alger en1775 », R .Af, n°8, Alger, 1864, pp 256-257.

(12) Feraud (L), « Traduction d'un Récit….. », n°9, op.cit, pp186-187.

(13) Mazarbedo, « Expédition du Contre….. », n°8, op.cit, pp256-257

(14) Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly….. », n°3, op.cit, p439.

(15) Mazarbedo, « Expédition du Contre….. », n°8, op.cit, p256.

(16) Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly….. », n°3, op.cit, p438.

(17) ibid, p 440.

(18) ibid, p 441.

(19) ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، الجزائر، 1973، ص261.

(20) Devoulx (A), « Expédition d'Oreilly….. », n°3, op.cit, pp140-141.